

## حرب .. أم لا حرب ؟

وكان آخر تقرير اطلعت عليه القيادة العسكرية  
يدل على ان الهجوم الجوي يمكن ان يقع في أية  
لحظة ، بالرغم من ان التصريحات التي خرجت  
من وزارة الإعلام منتصف نهار 16 / 1 / 1991  
كانت تدل على العكس .

---

تقع الحرب ..

أم لا تقع .. ؟

كان هذا السؤال ، هو الأكثر استقطاباً للجهد السياسي والعسكري والنفسي والاقتصادي في العراق بعد الثاني من آب (اغسطس) 1990 .

وظل كثيرون ينظرون وقوع معجزات اللحظة الاخيرة لتمنع الحرب ، بما يعكس حالة التمني اكثر مما كان يعكس حالة الاستنتاج .

اما العراقيون ، فقد أعطتهم خبرتهم السابقة في الحرب مع إيران ، قدرة على استيعاب فكرة ان الحرب ، سواء بدت محتملة ، او محتمة ، ولكنها خيار ممكن ، وعليهم ان يتأقلموا للعمل معه .. بمعنى ان صورة الحرب ، كانت قابلة للتخيل ، برغم معرفة او ادوات الصراع هذه المرة ستختلف عن تلك الأدوات التي أستخدمت من جانب ايران ، وبرغم ان الإعداد النفسي لشن الحرب على العراق ، كان قد بدأ يحفز مسالكه عميقاً في إثارة مشاعر القلق والترقب والخوف .

وتدرجت نظرة القيادة العراقية على مستويات عدة في تقرير احتمال وقوع الحرب من عدمه ، بحسب الزمن الذي مر بعد الثاني من آب ( اغسطس ) 1990 ، وهو ما يمكن حصره على النحو الآتي :

X أولاً : ان العراق ظل يترقب وقوع ضربة عسكرية اسرائيلية على مدى الاسبوع الاول الذي أعقب دخول القوات العراقية الى الكويت ، مستنداً في ذلك الى معلومات سابقة عن قائمة من الأهداف كانت اسرائيل قد حددتها منذ شهر نيسان ( ابريل ) 1990 ، وتلقى العراق انذارات كانت تبدو حاسم بان الضربة ستقع يوم الجمعة الثالث من آب 1990 ، أي بعد يوم من الدخول الى الكويت ، مما جعله يغلق اجواءه بالكامل ، وينشط دورياته القتالية في سماء الجهتين الغربية والجنوبية من العراق ، ثم تلقت القيادة العراقية تحذيراً واضحاً باحتمال وقوع هجوم اسرائيلي مدعوم من الطائرات الامريكية على بغداد ، يوم الجمعة العاشر من آب ( اغسطس ) ، واتخذت الاحتياطات ذاتها ، وارتفعت درجة الترقب .

وكان العراق بحاجة الا وقت مضاف الاستكمال استعداده في المقاومة الجوية ، واعداد البدائل في الرد على الضربة التي ينتظرها .

لكن درجة التعايش مع الحرب الواقعة انخفضت بدءاً من الشهر الثاني للأزمة ، بعد أن أعطى العراق إشارات عن استعداده للرد على اسرائيل ، ومنع رعايا الدول الاخرى من مغادرة العراق ، وبعد نشوء تفاعلات سياسية اقليمية ودولية اعادت الامل لامكانية الوصول نفسه إلى تسوية سياسية إثر خطاب الرئيس الفرنسي ميتران في الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 24 / 9 / 1990 ، وزيارة المبعوث السوفيتي الى بغداد في 6 / 10 / 1990 ، وبدء اتصالات غير مباشرة عبر أطراف وسيطة شملت بغداد وعواصم عربية ودولية عرضت حلولاً وسطاً للخروج من الأزمة .

X ثانياً : تزايد الاهتمام في العراق خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الأزمة بنظرية حافة الهاوية Brinkmanship التي اقترنت بوزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق جون فوستر دالاس خلال ولاية الرئيس ايزنهاور مطلع الخمسينات .

ولذلك كان الافتراض بان اشتداد الأزمة ، وتصاعد التهديد قد لا يؤدي بالضرورة الى الاصطدام المحتم ، بل على العكس ، يمكن ان ينشئ التهديد بوقوع الحرب أسباباً للبحث عن مخرج من الأزمة عن طريق تسوية سياسية تكون مقبولة ومرضية للطرفين .. الولايات المتحدة والعراق .

الا ان الاهتمام بهذه النظرية تلاشى بعد شهر تشرين اول ( اكتوبر ) عندما اتضح لبغداد ، ان زيادة عدد القوات الامريكية ، وتوفر التمويل الكافي للتحشيد والاستعداد للحرب من قبل جهات دولية عدة ، وانحسار فرص الحل السياسي بعد خفوت الدور الفرنسي ، وتلاشي ما عُرف بالحل العربي ، وفشل جهود الأطراف الوسيطة التي ترددت على زيارة بغداد وعواصم دول التحالف . حتى لم يبق من يعتقد بإمكانية تحقق نظرية حافة الهاوية بعد صدور قرار مجلس الامن 668 الذي أمهل العراق 45 يوماً لسحب قواته من الكويت .

X ثالثاً : مر العراق في حالة من الاستسلام للهزيمة ، عندما لم يعد هناك أي امل في الوصول الى تسوية سلمية للنزاع ، وهو الامر الذي رتب قبول التحديات ومواجهتها بأعلى درجات التصلب الغامض .. والمريب من شدة إفراطه بثقة لا تسنحها الإمكانيات الحقيقية في العراق ، ولم يزد ذلك التصلب في المواقف المعلنة عن كونه موجة من ردود الأفعال على أفعال حقيقية يصنعها الآخرون ، حتى بدأ أن كل قرار أو إعلان يصدر في الغرب سيرتب رد فعل متشدد متوقع من لدن العراق ، ليمضي التحدي إلى نهايته المحتمة : الحرب ، ولم يكن الاستسلام للتحدي ، الحالة الأمثل التي تمننت القيادة العراقية للجوء إليها ، ولكنها ارتضت بها ، وقد تكون مضت إليها أيضاً مما يصعب فهم جميع دوافعه ، بعد ان سدَّت الأبواب على العراق ، وأخضع لحصار جغرافي وسياسي واقتصادي ، وانقطع الحوار مع قيادته التي استنتجت أن الإلحاح في طلب الحوار والإعلان عن الحاجة إليه ، سيظهرها بمظهر الضعف ، ويجعل صورتها تتداعى أمام أنصار العراق ومؤيديه في الداخل والخارج آنذاك .

X رابعاً : كان صدام حسين ، مؤمناً بأن الحرب واقعة لا محالة ، ولعله كان اكثر تيقناً من أي قيادي آخر من مساعديه بحتمية وقوع الصدام العسكري ،

ويعود هذا الشعور في جذوره إلى إحساس عميق بالفجيعة والرضا بالقدر الذي يفرض تحدياً تتوجب ملاقاته ، وقد ترددت في أحاديثه وتصريحاته طوال الأشهر الستة التي سبقت الحرب المفردات الدالة على الرضا في القبول بإرادة الله ، ووصف المعارك بأنها نزال أرادته الرب سبحانه وتعالى ، ولذلك كان يظن أنه لا مناص من ملاقاته ما ستيرتب على الخيار الذي سار به العراق .

ويذكر عرفات في استذكاره أمامي عما حدث ( انه استمتع عشر مرات في الأقل من صدام حسين وهو يقول إن الحرب واقعة ، ومحتمة ، ولم يكن لديه أدنى شك في أن المواجهة العسكرية آتية . وان الطرق المؤدية إلى التسوية السياسية مسدودة ما دامت لا تنطوي على عرض سلام مشرف يقبل به العراق )  
× خامساً: قال لي الرئيس صراحة بعد سنة وشهرين من انتهاء الحرب : يجب أن تعرف أنه لم يكن هنا أي بلد او رئيس دولة ، او وزير في حكومة ، او جهاز مخابرات في العالم ، قد انبأ العراق في الساعات الثماني والأربعين الاخيرة بموعد بدء الحرب ، ولم تتلق القيادة العراقية اية اشارة ، في الساعتين الاخيرتين على المباشرة بقصف بغداد من أي من الجهات الدولية ، التي عرفت بساعة الصفر . ولذلك كان على العراق ان يقدر بنفسه وطبقاً لمعلوماته الميدانية من جهة ، واستقراءاته لتطور الاحداث وفهمه للطريقة التي يُصنع بها القرار الامريكي من جهة اخرى ، الموعد المحتمل لبدء الهجوم عليه .  
وفي هذا الصدد كان ثمة تناقض قابل للبيان ، في المواقف التي صدرت عن بغداد في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة ، فصدام حسين كان قد أبلغ مساعديه نهار 16 / 1 / 1991 باحتمال وقوع الحرب في بحر الساعات الإثنتي عشرة المقبلة وكان آخر تقرير اطلعت عليه القيادة العسكرية يدل على أن الهجوم الجوي يمكن أن يقع في أية لحظة ، بالرغم من أن التصريحات التي خرجت من وزير الإعلام منتصف نهار 16 / 1 / 1991 كانت تذهب بعيداً في منحى آخر .. إذ كان يقول لمحطات التلفزيون الأوروبية والأمريكية: أين هي الحرب ..؟ لقد انتهى موعد الإنذار .. وليست ثمة حرب .. انهم يكذبون ، وأدى وزير الإعلام ومساعدوه صلاة الشكر لله لأن (العراق تجاوز موعد الإنذار من دون أن يقبل بعروض السلام المهينة) وهنا الوزير المقرب من الرئيس معارفه وزملاءه بمضي أول نهار على انتهاء موعد الإنذار من دون أن تقع الحرب .

× × ×

إلا ان القيادة العامة للقوات المسلحة وقيادة الطيران والدفاع الجوي كانت قد استجمعت كل الدلائل التي تشير الى الموعد التقريبي لبدء الهجوم ، بعد منتصف ليلة 16 / 17 كانون الثاني ( يناير ) 1991 ، بحيث كانت الدوريات القتالية الجوية قد باشرت في أثناء ذلك طلعاتها الاعراضية .. وسجلت المراسد الجوية الامامية عبور اول موجة من الطائرات القادمة من السعودية قبيل الثانية بعد منتصف الليل – بحيث شكّلت الدوريات الجوية العراقية سياجاً في انتظار إيقاعها في فخ جوي – الا ان الطائرات الامريكية عادت فاستدارت الى الخلف لتتنزل في قواعدها التي انطلقت منها قبل نصف ساعة من ساعة الصفر .

وحلقت آخر طائرة مدنية عراقية – نو جامبو – منتصف ليلة 15 / 1 / 1991 في آخر رحلة لها الى الهند تحمل مسافرين عاديين ودبلوماسيين أجنب ، لتحط في مدينة نيودلهي ، مختتمة آخر نشاط خارجي لشركة الخطوط الجوية العراقية قبل بدء الحرب ، وقد بقيت في الهند بضعة أيام قبل ان تلتحق بأربع طائرات مدنية اخرى كانت قد سبقتها للمكوث في ايران بموجب اتفاق غير معلن ، بعد زيارة السيد عزة ابراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراق الى طهران التي رافقه فيها وزير النقل والمواصلات .

وفي تلك الاثناء كانت الطائرات العراقية المدنية الاخرى قد انتشرت في عمان وتونس وموريتانيا ، بما يدل على ان ايقاع خطوات الحرب القادمة كانت تُسمع جيداً في بغداد التي أغارت عليها بعد أقل من اثنتي عشرة ساعة ألفان وخمسمائة طائرة .. صارت أشبه بغطاء من حديد ونار يقلل الأبواب على سماء المدينة .